الحلقة التاسعة

أبناء يعقوب يؤيدون تهمة السرقة على بنيامين فيقولون :

إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل

يحاولون استبدال بنيامين بواحد منهم ، ويوسف

يرفض

عودتهم خائبين بغير بنيامين

الآيات القرآنية التى صيغ منها شعر الحلقة التاسعة

﴿ قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (٧٧) قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٨) قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ (٧٩) فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٠) ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (٨١) وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢) ﴾ .

أشعار الحلقة التاسعة

إخْوَانُ يُوسُفَ مَعَـــــه كَانُوا فِى حُوارٍ سَاخِطِين ١
قَدْ سَاءَهُم هَذَا الـــذى صَارُوا بـــه مُتَخَاذِلـــين ٢
إذ سيـــقَ بِنْيـامـــين ، قَدْ أَخَذُوه أَخْذَ المجْرِمـــين ٣
فَتَجَمَّعـــــــوا وتَشَاوَرُوا فِى أَمْرِهِم مُتَهَامِسِين ٤
مِن بَعْدِ ذَاكَ الـهَمْسِ ، قَدْ هَتَفُوا جَمِيـعًا قَائِلِين ٥
هَذَا الـغُلام لَه أَخٌ مِن قَبْل ضِمـــن الـسّارقـين ٦
لـمْ يَرْحَمُوا الـصّدّيـق حَتّى بَعْدَ عَشَرَاتِ الـسّنِين ٧
وَصَفُوهُ وَصْفـاً ظَالِمـاً ، لاَ لَمْ يَكـونُوا صَادِقِين ٨
فَأَسَرَّهـا فِى نَفْسِه مِنْهـم ، فَكَانُوا كـاذِبـين ٩
لـكـنّه مَا كَان يَرْضَى ذَلِكَ الـوَصْفَ المـهِين ١٠
فَأَجَابَهـم فِى نَفْسِه ، يـابِـئْس قَوْل المـفْتَرِيـن ١١
لاَ خَيْر فِيـكـم إذْ وَصَفْتُم غـائِبـاً فِى الخَائِنِين ١٢
أبـنـاءُ يَعـقُوبٍ غَدَوا فِى حَسْرَةٍ مُتَأَسِّفـين ١٣
وَتَذَكَّرُوا عَهـداً عـلـيْهِم ، أَقْسَمُوا مُتَضَامِنِين ١٤
قَدْ أَقْسَمُوا لأَبِيـهِمُ قَسَـمَ الـرّجَال المـدْرِكـين ١٥
أنْ يَحْفَظُوا هَذَا الـغُلام ، وَلَـن يـكُونُـوا مُهْمِلِين ١٦
ولـسَوْفَ يَحْزَن شَيْخُهـم إذْ مَا يَعُودُوا خَائِبِـين ١٧
ويُجَدّد الأَحْزَانَ بَعْد خُمُودِهـا ، هَذَا يـقِـين ١٨
قَالُوا لِيُوسُف : أَيّهـا الصّدِيـق ! يا ابْنَ الأَكْرَمِين ! ١٩
هَذا الـغُلام لَه أَبٌ بـين الـشُّيـوخ الـطّاعـنِين ٢٠
يَبـكِى لأَجْـل فِرَاقه ، بـلْ لاَ يَكُفّ عَنِ الأَنِـين ٢١
إنْ لـم يَعُد مَعَنا الـغُلامُ ، فَلَـنْ نَـكُونَ المفْلِحِين ٢٢
وَأَبُوهُ سَوْفَ يُجَدّد الأَحْزَان ، والـلَّوْم المهِـين ٢٣
خُذْ وَاحِـدًا مِـنّا بـدِيـلاً عـنـه ، لَسْنَا هَازِلِين ٢٤
إنّا نَرَاكَ وَقَدْ عَلِمْنَـا مِـنْك فِعْل المحْسِنِـين ٢٥

كَانَت إجَابَةُ يُوسُف لِلإخْوَةِ المُتَرَدِّين ٢٦
قَولاً حكيمًا حَازِمًا ، يَحْكِي فِعَال العَادِلين ٢٧
لا نَأْخُذَنّ الأبرِيَاءَ ونَتْرُكَنّ الفَاعِلين ٢٨
لا نَأْخذَنّ سِوَى الذِى قدْ قَارفَ الفِعْل المَشين ٢٩
إذ مَا أخَذْنَا غَيْرهُ صِرنَا بِحَقّ ظَالِمين ٣٠
لَمْ يَسْتَجِبْ لرَجَائِهِم ، مِنْ ثَم صَارُوا نادِمين ٣١
فَتَشَاوَرُوا فِى أمْرِهِم ، قَدْ أصْبَحُوا مُتَحَيِّرِين ٣٢
بَل قَالَ أكْبَرُهُم : فَلاَ تَنْسَوْا وكُونُوا ذَاكِرِين ٣٣
العَهْد قَدْ أعْطَيْتُمُوه إلى أبِيكُم مُوثِقِين ٣٤
أن تَحْفَظُوا هَذَا الغُلام مِن الأذى مُتَضَامِنِين ٣٥
لَكِنّه يَا حَسْرةً ، قَد ضَاع ضَيْعَة ضَائِعِين ٣٦
مِن قَبْلِه قَدْ ضَاع يُوسُفُ كَان وضّاء الجَبِين ٣٧
قَدْ ضَاع مِن حقْد عَلَيه ، فَبِئْس فِعْلُ الحَاقِدِين ٣٨
عُودُوا فإنّى لَن أعُودَ إلى أبى فِى العَائِدِين ٣٩
لا أسْتَطِيعُ بأن أراهُ ، فَقَد غَدَوْنَا كَاذِبِين ٤٠
بَل سَوْفَ أبْقَى هاهُنَا ، أخْشَى مِنَ اللَّوْم المهِين ٤١
إن يَرْضَ عَنى الشّيخُ جِئت إلَيه جِيئَةَ آسِفين ٤٢
أو إن يَشَأ ربِى بِأمْرٍ ، فَهوَ ربّ العَالَمِين ٤٣
هو مَالِكُ الأسْبَاب والأقْدار فِى دُنيَا وَدِين ٤٤
إن يُعْطِنى أمْرًا بِحَرْب القَوْم ، لا ، لَنْ أسْتَكِين ٤٥
السَّيْفُ أحْمِلُه لِحُكْم اللّه ، خَيْر الحَاكِمِين ٤٦
عُودُوا إلى الشّيخ الكَبِير فَأخْبِروُه مُؤَكِّدِين ٤٧
قُولُوا له : سَرَقَ الغُلام ، فَبِئْسَ فِعْل السارقين ٤٨
أخَذُوه فِى ذَنْب جَنَاه ، فَصَار فِى سِجْنٍ رَهِين ٤٩
قَدْ تَم هَذَا جَهْرةً والنّاس كَانُوا شَاهِدِين ٥٠
إنّا لَعَمْرُ اللّه مَا كُنّا لِغَيْب حَافِظِين ٥١
عَادُوا بِغَيْر أخِيهُمُوه ، لا شَك عَادُوا خَائِبِين ٥٢

واستَقبَل الشيخُ الكبيرُ بَنيه كَانُوا غَائبين ٥٣
فَوْرًا تَسَاءل قَائلاً : فَلْتُخبرُونى صَادقين ! ٥٤
مَالِى أراكُم قَدْ أتيتُم لَم تكُونُوا كَاملين ؟! ٥٥
أينَ الغُلام أخُوكُمو ؟! قَالُوا وكَانُوا آسفين ٥٦
قَالُوا لَه : فَاسْمَع مَقَالَتَنَا سَمَاع الموقنين ٥٧
تَاللّه قَدْ سَرَقَ الغُلامُ ، ولَمْ نكُن مُتَوقعين ٥٨
أخَذُوه فِى جُرم جَنَاهُ ، ونَحْن كُنّا شَاهدين ٥٩
لم نَسْتَطِع انْ نَفْتَديه بِكُلّ غَالٍ أو ثَمين ٦٠
قُلْنَا لَهُم : فَلْتَأخُذُوا منا سِواهُ مُبَادلين ٦١
قَالُوا : فَلسْنا آخذِين سِوَى الغَرِيمِ المستَهين ٦٢
تَاللّه قَد كَانوا بحَق مُنْصفين وعَادلين ٦٣
إن لَمْ تُصدّقْ مَا نقول وكُنْت فى شَك مُبين ! ٦٤
فَاسأل بِمصْر هُناك كَيْما تَعْرِف الخَبَر اليَقين ٦٥
وسْأل رِجَالاً رَافَقُونا ، فِى المسِيرة قَادمين ٦٦

أبناء يعقوب يؤيدون التهمة على بنيامين

﴿ قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ ﴾

إِخْوَانُ يُوسُفَ مَعَـــــه كَانُوا فِى حُوارٍ سَاخِطِين ١
قَدْ سَاءَهُم هَذَا الـــذى صَارُوا بـــه مُتَخَاذِلـــين ٢
إذ سِيـــقَ بِنْيـامـــين ، قَدْ أَخَذُوه أَخْذ المجْرِمـــين ٣
فَتَجَمَّعَـــــــوا وتَشَاوَرُوا فِى أَمْرِهِم مُتَهَامِسِين ٤
مِن بَعْدِ ذَاكَ الـــهَمْسِ ، قَدْ هَتَفُوا جَمِيـعًا قَائِلـــين ٥
هَذَا الـــغُلام لَه أَخٌ مِن قَبْل ضِمـــن الـــسَّارِقـــين ٦

أبناء يعقوب فى حوار مع يوسف الصديق عليه السلام ، إنهم يستنكرون تلك الواقعة المؤسفة ، وفى الوقت نفسه ، يبدون أسفهم لما حدث ، لقد شعروا بالاستهانة والتخاذل فى أعماقهم ، بل شعروا بضآلة أقدارهم ، بعد أن كانوا أعزة مكرمين ، وذلك لما أنزلهم العزيز منزلاً كريما ، فيه توقير وتكريم واحترام . لقد أُخِذَ أخوهم بنيامين ، كما يؤخذ المجرم الآثم ، ولا غرو ، فأمر بنيامين لا شفاعة فيه ، الجريمة ثابتة ضده ، لقد وجدوا الصواع المسروق مخبوءًا فى رحله ، وقد أخرجوه علنًا أمام الجميع . وأمام هذا الموقف العصيب ، الذى فوجئ به أبناء يعقوب ، رأوا أن يتشاوروا فى الأمر ، ليتخذوا قرارًا يواجهون به هذا الموقف .فتنحوا جانبًا وتهامسوا ، ولم يطل همسهم وحديثهم ، لقد ارتضوا أمرًا خطيرًا ، ترى ما هو ؟! لقد هتف قائلهم بعد التشاور قائلاً : إن كان هذا الغلام قد سرق ، فليس هذا جديدًا ولا غريبًا ، لقد كان أخوه من قبله سارقًا !!! لقد طعنوا أخاهم هذا الذى اختارته الأقدار ، ليكون كبش الفداء ، فبدلاً من أن يدافعوا عنه ، أيدوا التهمة التى نسبت إليه . . وفى الوقت نفسه ، نالوا من يوسف ، وألصقوا به تهمة هو منها براء . . إنهم لم يرحموا يوسف ، حتى بعد السنين الطويلة ، إن ضميرهم لم يستيقظ بعد ، ولم يؤنبهم بشأن أخيهم يوسف ، على ما فعلوه به !!

لقد أسقط فى يد أبناء يعقوب ، وأمسكت التهمة بهم ، ووقع أخوهم لأبيهم فى شباكها ، وإذ لم يكن لهم ما يقولون فى دفع التهمة ، إزاء هذا الواقع الصريح ، إلا

أنهم لكى يقولوا شيئًا ما يعذرون به لأنفسهم فى هذا الموقف، ألقوا بالتهمة بعيدًا عنهم ، وعزلوا أنفسهم عن الصلة الجامعة بينهم وبين أخيهم، فهذا السارق ليس أخًا شقيقًا لهم ، وأنه من طينة غير طينتهم، فإنه وإن كان ابن أبيهم يعقوب، فإن أمه ليست أمهم ، ثم لكى يدعموا هذا القول ويؤكدوه، جعلوا لابنى يعقوب من تلك الأم سابقة فى السرقة . . إلى أن قالوا : ﴿ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ﴾ (١) .

(١) القصص القرآنى .

يوسف يؤلمه وصف إخوته له بالسرقة

﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾﴾

لَمْ يَرْحَمُوا الصِّدِّيق حَتّى بَعْدَ عَشَرَاتِ السِّنين ٧
وَصَفُوهُ وَصْفاً ظَالِماً ،لاَ لَمْ يكونُوا صَادِقين ٨
فَأَسَرَّها فِى نَفْسِه مِنْهم ، فَكَانُوا كاذِبين ٩
لكنّه مَا كَان يَرْضَى ذَلِكَ الوَصْفَ المهِين ١٠
فَأَجَابَهم فِى نَفْسِه ،يابْئس قَوْل المفْتَرِين ١١
لاَ خَيْر فِيكم إذْ وَصَفْتُم غائِباً فِى الخَائِنين ١٢

ياالله !! إن الحقد الذى فى أعماق أبناء يعقوب ، على أخيهم يوسف الصديق ، لم تمحه الأيام ، وبعده عنهم عشرات السنين . . لم يتأثروا أيضًا بحزن أبيهم على يوسف ، بل زادتهم الأيام قسوة . . لقد قست قلوبهم ، وتبلدت مشاعرهم .

لا غرو أن هذا السلوك من أبناء يعقوب تجاه أخيهم يوسف، يعتبر عداءً وعدوانًا ، ولم لا ؟ !فإن جريمتهم فى حق يوسف ، برغم مرور عشرات السنين ، فإنهم لم يندموا على فعلها ، بل إنهم أضافوا إليها افتراء جديدًا ، ألا وهو ـ السرقة ـ وهذه صفة لا تطلق إلا على أسفل الطبقات من البشر .وهم فى الوقت نفسه ، قد تبرأوا من أُخُوَّتهم لبنيامين،وهو أحوج ما يكون إلى كلمة دفاع عنه فى لحظة استخراج الصواع من رحله .

لقد تألم يوسف فى أعماقه ، حينما سمع قولهم الظالم فى حقه ، لقد كان يظن أن الأعوام الطويلة قد أذهبت ما فى قلوبهم من حقد عليه ، لا لذنب جناه ، بل لأن أباه أحبه ، ومن ثم فهم يشعرون ، ويتمنون لو أنهم لم يفعلوا ذاك الفعل . . بيد أنه تبين فيهم غير ما يظن .فى هذا المقام شعر يوسف بالأسى والمرارة ، لكنه كظم غيظه ، ولم يرد على بهتانهم وكذبهم ؛ لأنه لو ردّ عليهم مدافعًا عن نفسه ،لانكشف أمره وعرفوه، ﴿ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ﴾ فهو لم يقرر بعد أن يظهر حقيقة أمره لهم،فمن ثم منع نفسه من الرد على إخوته ، وهم يطعنون فى أعز ما يملك ، ويصفونه بأخس الصفات ـ السرقة ـ ﴿ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ .

هذه الجملة ، قالها يوسف فى نفسه ،لم يقلها لإخوته بلسانه ، بل ربما قال أيضًا : لا خير فيكم أيها الإخوة ، كنت أظن أنكم قد ندمتم على ما فعلتم معى ، وأنكم تتمنون رؤيتى شوقًا ؛ لكونى أخاكم وابن أبيكم ، بيد أننى.تبينت من قولكم الذى سمعته ، أن نار الحقد والبغضاء ، لم تنطفئ جذوتها من قلوبكم ، بل زادتها الأيام والأعوام تأججًا . ولو أننى عاملتكم من جنس عملكم ، لانتقمت منكم لنفسى ، وفى الوقت نفسه لم أكن معتديًا ولا ظالمًا ، وإنما بمنطق الحق والعدل ؛ لقوله تعالى : ﴿ **وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ** ﴾ [النحل : ١٢٦] .

أبناء يعقوب فى حوار مع بعضهم

.....

أبنـــاءُ يَعـقُوبٍ غَدَوا فِى حَسْرةٍ مُتَأَسِّفـــين ١٣
وَتَذَكَّرُوا عَهـــداً عَـلَـــيْهِم، أقْسَمُوا مُتَضَامِنين ١٤
قَدْ أقْسَمُوا لأبِيـــهِمُ قَسَـــمَ الرِّجَالِ المُـدْرِكِـين ١٥
أنْ يَحْفَظُوا هَذَا الـغُلام، ولَـن يـكُونُـوا مُهْمِلِـين ١٦
ولَـــسَوْفَ يَحْزَن شَيْخُهُـم إذْ مَا يَعُودُوا خَائِبِـين ١٧
ويُجَدِّد الأحْزَانَ بَعْد خُمُودِهـــا ، هَذَا يَـقِـــين ١٨

لقد وجد أبناء يعقوب أنفسهم ، فى موقف لم يكونوا مهيئين له ، فمن ثم ألجمتهم الدهشة عن التعبير المناسب فى هذا المقام الخطير . . لقد قالوا قولا يخلو من الحكمة والفطنة أيضًا، قد يكونون هكذا ، مع إحسان الظن بهم . وقد يكونون سيّئى النية، ذلك لأنهم بدلاً من أن يدافعوا عن أخيهم ، بالمنطق والحجة ليبرئوه من التهمة القذرة ، التى ألصقت به . . انقلبوا ضده ، فأيّدوا الاتهام ، وياليتهم اكتفوا بتأييد الاتهام ، بل أضافوا من عندهم فرية جديدة ، تؤكد وتدعم هذا الاتهام فقالوا : ﴿ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ ﴾ . لقد خذلوا أخاهم فى موقف كان ينتظر منهم أن ينصروه، ذلك لأنه أخوهم، وهم أعلم الناس بسلوكه وأخلاقه . . ولا غرو، فهم كلهم أبناء يعقوب، نبى الله ابن اسحاق نبى الله، ابن إبراهيم خليل الله . إن سلسلة إبراهيم خليل الله، وذريته كانت معروفة لدى المصريين فى مصر . . لقد كان يكفى منهم أن يذكروا نسبهم للمصريين ، لدفع تلك التهمة عن أخيهم . . لكن ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن . لما أفاقوا من هول المفاجأة، كان أول شىء تذكروه ، هو عهدهم الذى أخذوه على أنفسهم ، وقسمهم الذى أقسموه أمام أبيهم، أن يحفظوا أخاهم بنيامين من كل سوء ، ولن يعودوا بدونه ، مهما كانت الأسباب ، إلا أن يكونوا مغلوبين ، فمن ثم لا حول لهم ولا قوة .

لقد تصوروا ما سوف يكون حال أبيهم معهم ، من حيث التأنيب العنيف ، واللوم المر ، من ناحية ، وأحزانه التى سوف تتضاعف على ولده بنيامين ، من ناحية أخرى . إن أحزان يعقوب على ولده يوسف ، ربما تكون قد خمدت نوعا ما ، لكن تخلف بنيامين فى مصر عند يوسف ، سوف يجددها ، ويؤجج نارها ، ويشعل أوارها .

يطلبون من العزيز أن يأخذ واحدًا منهم بديلا عن بنيامين

﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٨) ﴾

قَالُوا لِيُوسُف: أيّها الصّديق ! يـابْنَ الأكْرَمـين! ١٩
هَذا الغُلام لَه أبٌ بـين الشُّيُوخ الطّاعنـين ٢٠
يَبكِي لأجـل فِرَاقه ،بـلْ لاَ يكُفّ عَنِ الأنـين ٢١
إنْ لـم يَعُد مَعَنا الغُلامُ ،فَلـنَ نـكُونَ المفْلحـين ٢٢
وَأبُوهُ سَوفَ يُجَدّد الأحْزَان ، والـلَّوْم المهـين ٢٣
خُذْ واحـدًا مـنّا بـديـلاً عـنـه ، لَسْنَا هَازِلـين ٢٤
إنّا نَرَاكَ وقَدْ عَلِمْنـا مـنْك فِعْل المحْسِنـين ٢٥

بعد الحوار الذى تمخض عن خذلان أبناء يعقوب، لأخيهم بنيامين، رأوا أن يستدركوا هذا الموقف المخزى الذى وقفوه ،فطلبوا من العزيز ـ يوسف الصديق ـ طلبًا ، هم يعرفون سلفًا أنه مرفوض ، وذلك بحكم المنطق والعقل والقانون فيقولون :﴿ ... يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٨) ﴾ .

يقولون : إن أباه شيخ كبير ، يحبه حبًا لا مزيد عليه ، وبالتالى فلن يحتمل أن يغيب عنه، فلو أننا عدنا إليه، ولم يكن ولده هذا معنا، فسوف تتجدد أحزانه ، ولن يكف عن البكاء والأنين ليل نهار، وحينئذ سوف يصب جام غضبه علينا . والواقع أن القوانين والشرائع لا تعترف بالعواطف ، التى تربط بين الآباء والأبناء ، ولو أننا بحثنا حالة كل إنسان يرتكب جرما ما ، فسوف نجد أن أباه يحبه ، ولا يرضى ببعده عنه، هذا مع اعتبار بنيامين مجرمًا جدلاً . . إذن فطلبهم هذا مرفوض عقلاً ومنطقًا . ويقول أيضًا : ﴿ فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ﴾ هم يعلمون أيضًا ، أنه ما من حاكم يرضى أن يترك المجرم الحقيقى ، ليأخذ بديلاً عنه ، إذ فى هذه الحالة يستطيع المجرمون الحقيقيون أن يجيئوا بمن يرضى بالسجن نيابة عنهم ، وفى هذا فساد حال المجتمع . . هذا العرض من أبناء يعقوب ، لا إخالهم يجهلون أنه مرفوض أيضًا بحكم القانون ، ثم يختتمون سؤالهم قائلين : ﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٨) ﴾ ولو أجابهم لما طلبوه منه ، ما كان محسنًا .

وإذ يرى أبناء يعقوب ، أنهم بحيث لا تعلق بهم تهمة السرقة ؛ لأن الذى سرق ليس أخًا شقيقًا لهم ، وأن نظرة العزيز إليهم غير النظرة التى ينظر بها إلى أخيهم هذا ، إنهم إذ يرون هذا ، يجيئون إلى العزيز متلطفين مستعطفين بضعف أبيهم وشيخوخته ، وما يكون لوقع الخبر عليه بأن ابنه قد سرق، وأخذَ بما سرق: ﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيز ... ﴾ إلخ فهذا من شأنه أن يخفف كثيرًا من الآم الشيخ الكبير، إذا أطلق سراح هذا الابن ، وحل محله واحد منا ، فإنك أيها العزيز ، محسن كريم ، لا تبخل علينا بإجابة هذا الطلب الذى فيه إحسان إلى أب شيخ هرم [1] .

(١) القصص القرآنى .

يوسف يرفض البديل عن بنيامين

﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذاً لَّظَالِمُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾

كَانَت إجَابَةُ يُوسُف لِلإخْوَة المُتَرَدّين ٢٦
قَولاً حكيمًا حَازِمًا ، يَحْكِي فِعَال العَادلين ٢٧
لا نَأْخُذَنّ الأبْرِيَاءَ ونَتْرُكَنّ الفَاعلين ٢٨
لا نَأْخذَنّ سوَى الذى قدْ قَارفَ الفعْل المشين ٢٩
إذ مَا أخَذْنَا غَيْرهُ صِرنَا بِحَقّ ظَالمين ٣٠
لَمْ يَسْتَجِبْ لرَجَائهم ، مِنْ ثَم صَارُوا نادمين ٣١

يوسف الصديق يتعامل مع إخوته ، بكل جفاء وقسوة ـ فى ظاهر الأمر ـ لا سيما بعد أن وجد الصواع فى رحل أخيه بنيامين ، وبعد أن قالوا قولتهم الظالمة : ﴿ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ ... ﴾ . إنه يحاول أن يقسو عليه، فمن ثَم صار يتحدث إليهم، على كونهم إخوة لإنسان مجرم قد ارتكب جريمة السرقة . . فلما طلبوا منه أن يأخذ واحداً منهم مكانه ، سخر من أفهامهم، وأعطاهم درسًا فى القانون والعدالة معناه : أن لا تزر وازرة وزر أخرى . لقد رفض يوسف الصديق ، عرض إخوته الذى عرضوه ، بكل حزم وقوة فقال : ﴿ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذاً لَّظَالِمُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ . إن يوسف يستعيذ بالله من الظلم ، ومن كل شىء يؤدى إلى الظلم ، ولا غرو فقد عانى من ألوان الظلم منذ طفولته .

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب [1] : « لقد استنكر يوسف هذا الطلب من إخوته ، واستعاذ بالله منه . . فإنه ليس من الإحسان فى شىء ، أن يأخذ البرىء بجريرة المذنب ، ثم لماذا لم يطلب أبناء يعقوب ، إلى العزيز أن يكون إحسانه ، بإطلاق سراح أخيهم تفضلاً منه وكرمًا ؟!

إنهم لم يفعلوا هذا لأن فى ذلك تعطيلاً لحد من حدود الله ، فالسارق لا بد أن يعاقب ، وأن يقتص منه ، ليكون ذلك ردعًا له عن معاودة السرقة ، وعبرة لغيره ، من أن تدعوه نفسه إلى السرقة ، ولهذا طلبوا القصاص منه فى شخص واحد منهم » .

---

(١) القصص القرآنى .

قال الأستاذ أحمد بهجت [١] : بدأوا استرحام يوسف . . يوسف أيها العزيز يوسف أيها الملك ، إن له أبا شيخًا . . فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين ، قال يوسف بهدوء: كيف تريدون أن نترك من وجدنا كأس الملك عنده ؟! ونأخذ إنسانًا آخر ؟ هذا ظلم ، ونحن لا نظلم .

حاول الإخوة أن يستمروا فى استرحامه ، ولكن الضباط والجنود أفهموهم أن عزيز مصر . . يوسف الصديق ، قد تكلم ، وانتهى الأمر ، لينصرفوا ويتركوا أخاهم عبدًا عنده . . » .

(١) أنبياء الله .

لقد تأكدوا من رفض عرضهم على العزيز

﴿ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ ﴾ .

فَتَشَاوَرُوا فى أمْرِهِم ، قَدْ أصبَحوا مُتَحَيِّرين ٣٢
بَل قَالَ أكْبَرُهم : فَلاَ تَنْسَوْا وكُونُوا ذَاكرين ٣٣
العَهْد قَدْ أعْطَيْتُمُوه إلى أبيكُم مُوثِقين ٣٤
أن تَحْفَظُوا هَذَا الغُلام مِن الأذى مُتَضَامنين ٣٥
لكنّه يَا حَسْرةً ، قَد ضَاع ضَيْعَة ضَائعين ٣٦

﴿ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ﴾ : لما رفض يوسف الصديق عليه السلام رجاء إخوته ، مع عرضهم الذى عرضوه، وذلك بأسلوب حضارى وعلمى ومنطقى . . استيأسوا منه . أن لا أمل فى استخلاص بنيامين من قبضة عزيز مصر . لقد أُخِذ بجريمته التى ارتكبها . تحيروا فى أمرهم ، لا يدرون ماذا يصنعون ! ضاع الرأى منهم ، أرتج عليهم ، فذلك أمر لم يحسبوا حسابه، فمن ثم تنادوا ، ثم انتحوا جانبًا ، وأخذوا يتناجون فيما بينهم ، ليتخذوا قرارهم فى هذا المأزق الذى وجدوا أنفسهم فيه ، والذى طرأ على تفكيرهم وأفكارهم، ولم يكونوا قد هيأوا أنفسهم لمواجهته. قال أكبرهم سنًا: ماذا أنتم صانعون ؟! لقد أعطيتم أباكم عهدًا وميثاقًا ، وأقسمتم أمامه بأغلظ الإيمان ، أن تحفظوا بنيامين من كل سوء قد يصيبه ، ما دمتم تقدرون على منعه ، وها هوذا قد ضاع من بين أيدينا . . وها نحن أولاء نقف مكتوفى الأيدى عاجزين ، لا نستطيع أن نفعل لأجله شيئًا .

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب [١] : وإذ رأى أبناء يعقوب ، أن العزيز لم يستجب لما طلبوا ، بعد أن جاءوا إليه من كل سبيل من سبل الرجاء والاستعطاف ، ووقع اليأس فى نفوسهم، من أن العزيز لن يطلق سراح أخيهم، إذا رأوا هذا، خلوا بأنفسهم، فى مكان بعيد عن أعين الناس وآذانهم . . وجعلوا يقلبون الأمر على وجوهه المختلفة ، ﴿ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ﴾ أى حين استيأسوا من خلاص أخيهم ، أداروا الحديث بينهم

(١) القصص القرآنى .

فى عزلة منقطعة عن الناس .

قال ابن كثير فى تفسيره : يخبر الله تعالى عن إخوة يوسف : أنهم لما يئسوا من تخليص أخيهم بنيامين، الذى قد التزموا لأبيهم برده إليه، وعاهدوه على ذلك ، فامتنع ذلك ﴿ خَلَصُوا ﴾ أى انفردوا عن الناس ﴿ نَجِيًّا ﴾ يتناجون فيما بينهم ﴿ قَالَ كَبِيرُهُم ﴾ ، وهو روبيل ، قيل : يهوذا ، وهو الذى أشار عليهم بإلقائه فى البئر عندما هموا بقتله ، قال : لهم : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ ﴾ لتردنه إليه . . » .

أخوهم الأكبر ... يرفض العودة معهم

﴿ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي ﴾

مِن قَبْلِـهِ قَدْ ضَاعَ يُوسُفُ كَـانَ وضّاء الجَبِـين ٣٧
قَدْ ضَاعَ مِن حِقْدٍ عَلَيـه ، فَبِئْس فِعْلُ الحَاقِدِيـن ٣٨
عُودُوا فَـإِنّي لَن أَعُودَ إِلَـى أَبـى فِى الـعَائِدِيـن ٣٩
لا أَسْتَطِيـعُ بِـأن أَرَاهُ ، فَقَد غَدَوْنَـا كَـاذِبِـين ٤٠
بَل سَوْفَ أَبْقَى هاهُنـا ، أَخْشى مِنَ اللَّوْمِ المـهِين ٤١
إن يَرْضَ عَنّـى الشَّيـخُ جِئت إِلـيه جِيـئَةَ آسِفـين ٤٢

لا يزال أكبر أبناء يعقوب ، يتحدث إلى إخوته حديثًا مشفوعًا باللوم العنيف ، مذكرًا إياهم جريمتهم القديمة فى حق أخيهم يوسف . . يوسف الذى كان مثلاً أعلى لنبل الأخلاق ، وجمال الصورة . لقد أضعتم يوسف من قبل . . أضعتموه بحقدكم وعدائكم ، وهو لم يكن من قبل قد ارتكب جرمًا يستحق لأجله هذا منكم : ﴿ **وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي** ﴾ . وها أنتم اليوم قد فرطتم فى أخيه بنيامين، وهو مثل أخيه حلمًا وأخلاقًا . عودوا إلى أبيكم ، فإنى لن أعود معكم ، فليس لى وجه أواجه به أبى . . لن أغادر أرض مصر ، سوف أبقى ها هنا ، فى الأرض التى ظل فيه بنيامين سجينًا ،بل عبدًا رقيقًا . لن أعود إلى أبى إلا إذا أذن لى ، إن يأذن لى بالرجوع إليه ، راضيًا عنى ، رجعت ، وإلا فلا .

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب : ﴿ **وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي** ﴾ . هذا هو رأى كبيرهم ، وصاحب الرأى فيهم ، وذلك هو توقعه من هذا الحدث الذى طرقهم ، إنه لن يبرح الأرض التى هو فيها ، وهى أرض مصر ، ولن يلقى أباه إلا إذا دعاه إليه ، صافحًا عنه القصص القرآنى .

قال الشيخ محمد على الصابونى فى « مع أعلام المفسرين » : ﴿**وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي** ﴾ . أى قال أكبرهم سنًا: وهو « روبيل » أليس قد أعطيتم أباكم عهدًا وثيقًا برد أخيكم ، ﴿ **وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ** ﴾ فكيف ترجعون إليه الآن ﴿ **فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي** ﴾: أى فلن أفارق أرض مصر ، حتى يسمح لى أبى بالخروج منها .

كبير أبناء يعقوب ينتظر حكم الله

﴿ أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾

أو إن يَشَأْ ربـي بـأمْرٍ ، فَهـوَ ربّ الـعَالمـين ٤٣
هـو مَالكُ الأسبَاب والأقْدار فـي دُنـيـا وَدِيـن ٤٤
إن يُعْطِنى أمْرًا بـحَرْب القَوْم ، لا ، لـنْ أستَكِين ٤٥
الـسَّيْفُ أحْمِلُه لحـكْم الـلّه ، خَيْر الحَاكـمـين ٤٦

لا زال كبير أبناء يعقوب ، يتحدث إلى إخوته ، وقد واجههم بالحقيقة المرة التى قد تناسوها . هى الجريمة التى ارتكبوها، فى حق يوسف، وقد أعلن أمامهم أنه لن يعود إلى أبيه، لأنه يستحيى من مواجهته . ثم أردف قائلاً: ﴿أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾. فيقول: أو لعل الله عز وجل يهيئ سببًا من الأسباب، يكون فيه خلاص أخى بنيامين، من عزيز مصر ، الذى أخذه بجريمة الصواع الذى وجده فى رحله . ولا غرو ، فهو سبحانه وتعالى ، قادر على كل شىء ، وهو مسبب الأسباب ، هذا من ناحية . . ومن ناحية أخرى ، فلعله يأمرنى بقتال هؤلاء القوم ، لتخليص أخى من قبضتهم . . وتالله لو أمرنى ، فلن أجبن ، ولن أضعف ، ولسوف أقاتل ، وأقاتل حتى يقضى الله أمره .

قال القرطبى فى تفسيره : ﴿ أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي ﴾ بالممر [1] مع أخى ، فأمضى معه إلى أبى ، وقيل : المعنى ، أو يحكم الله لى بالسيف ، فأحارب وآخذ أخى ، أو أعجز فأنصرف بعذر ، وذلك أن يعقوب قال : ﴿ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ ، ومن حارب وعجز فقد أحيط به .

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب : « فبأى وجه بعد هذا يلقى كبيرهم أباه ، وهو قائد الركب ، والمسئول عن سلامة كل عضو فيه ؟!

إنه لن يبرح الأرض ، ولن يغادر مكانه حتى يأذن له أبوه ، أو تغلبه إرادة الله الغالبة » القصص القرآنى .

---

(١) هكذا فى الأصل ـ بالممرّ ـ ولعلها ـ بالبقاء أو الاستمرار .

﴿ أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي ﴾ أو يقضى الله لى بالخروج منها ، أو بخلاص أخى منهم ، أو بالمقاتلة معهم لتخليصه . . روى أنهم كلموا العزيز فى إطلاقه ، فقال روبيل : أيها الملك ،والله لتركنا [1] أو لأصيحن صيحة تضع منها الحوامل ،ووقفت شعور جسده ، فخرجت من ثيابه ، فقال يوسف عليه السلام لأحد أولاده : قم إلى جنبه فمسه ، وكان بنو يعقوب عليه السلام إذا غضب أحدهم،فمسه الآخر ، ذهب غضبه . فقال روبيل : من هذا ، إن فى هذا البلد لبذراً من بذر يعقوب . تفسير البيضاوى .

(١) هكذا فى الأصل . . ولعلها : لتركنه ، أى بنيامين .

يوصى إخوته بما يقولونه لأبيهم

﴿ ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (٨١) ﴾ .

عُودُوا إلى الشّيخ الكَبير فَأَخبِروهُ مُؤَكدّين ٤٧
قُولُوا له : سَرَقَ الغُلام ، فَبِئْسَ فعْل السارقين ٤٨
قَدْ تَم هَذَا جَهْرةً والنّاس كانُوا شَاهدين ٤٩
أَخَذُوه فِي ذَنْب جَنَاه ، فَصَار فِي سجْنٍ رَهين ٥٠
إنّا لَعَمْرُ اللّه مَا كُنّا لغَيْب حَافِظين ٥١

ها نحن أولاء لا نزال نسمع كبير أبناء يعقوب ، يتحدث لإخوته حديثا ممزوجًا باللوم والتأنيب فيقول : فهذه هى المرة الثانية التى نرزأ فيها أبانا . . المرة الأولى كانت فى يوسف ، وقد كان ذلك بتدبيركم المجنون الحقود ، وكنت أنا المسئول أمام أبى الذى كان يثق بى ، واضطررت آنذاك أن أؤيد أكذوبتكم التى مازال أبونا فى شك من صحتها وهى مقولة : ﴿ أَكَلَهُ الذِّئْبُ ﴾ . ومع ذلك فإننى مضطر أن أسير معكم إلى نهاية المشوار . . فقال : ﴿ ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ ﴾ . ثم يردف قائلاً : على كل حال ، فالموقف فى هذه المرة بشأن بنيامين ، غيره فى شأن يوسف ؛ لأن شأن يوسف كان جريمة مدبرة، اتفقتم على خطوطها وتفاصيلها قبل تنفيذها . أما أمر بنيامين ، ففى ظاهر الأمر ، لا غبار عليكم ، وإن كان من الممكن أن تتغير صورة الموقف ، لو أوليتم هذا الأمر اهتمامكم. قولوا لأبيكم: إن بنيامين سرق. . وقد ضبط متلبسًا بجريمته، لقد أخرجوا الشىء المسروق من متاعه ، أمام جميع الناس . . وقد كنا شاهدين ، نرى بأعيننا ، الحدث الذى أخزانا وجعلنا نطأ طئ رءوسنا أمام العزيز . لذلك . . فقد أخذوه بجريمته، وما كنا نستطيع أن ندفع عنه، أو نفعل لأجله شيئًا ، ذلك لأننا كنا أكثر الناس تحاملاً على السارق ، قبل أن نعرف من هو ؟! وقبل أن نتبين أنه واحد منا !!

﴿ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴾ . هذه هى الحقيقة يا أبانا، نذكرها لك كما وقعت ، لم نخطئ منها كلمة واحدة ، ولقد كان هذا الأمر بعيدًا عن تصورنا ، وعن دائرة تفكيرنا ، فنحن لا نعلم ، ولا نتصور أن بنيامين قد يرتكب جريمة السرقة التى شاهدناها بأعيننا .

أبناء يعقوب يعودون بغير بنيامين

.....

عَادُوا بِغَيْر أَخِيهِمُو ، لا شَك عَادُوا خَائِبِين ٥٢
واسْتَقْبَل الشَيخُ الكَبِيرُ بَنِيه كَانُوا غَائِبِين ٥٣
فَوْرًا تَسَاءل قَائِلاً : فَلْتُخْبِرُونِي صَادِقِين ! ٥٤
مَالِي أَرَاكُم قَدْ أَتَيْتُم لَم تَكُونُوا كَامِلِين ؟! ٥٥
أَيْنَ الغُلام أَخُوكُمو ؟! قَالُوا وكَانُوا آسِفِين ٥٦

لقد عاد أبناء يعقوب بالخيبة والخزى . . لقد كانت الظروف أقوى من إرادتهم ، لقد تركوا أخاهم بنيامين ، عند عزيز مصر رقيقًا لكونه ارتكب جناية السرقة . . وقد ظل أخوهم الأكبر روبيل ، ظل فى مصر خجلاً ، أو خوفًا من لوم وتأنيب أبيه يعقوب . وصلوا الديار المصرية : ديار آل يعقوب ، مقر إقامتهم ، وكان الأسف باديًا على وجوههم ، ويكسو محياهم . . كل واحد منهم يتحاشى النظر فى وجه أبيه . بيد أنهم لا مفرّ لهم من المواجهة ، ولا بد لهم من ذكر الحقيقة المرة للشيخ ، ليعذرهم فى موقفهم ، ولا يشدد اللوم عليهم .

لم يغب عن يعقوب عليه السلام حالة بنيه عند وصولهم ؛ لأن حرارة الاشتياق فى قلب الشيخ ، ليست هى كذلك عند بنيه القادمين من السفر ، بعد غيبة طالت ، وطال انتظار الشيخ لقدومهم . وبعد لحظات ، أجال الشيخ نظره فى بنيه يتفقدهم ، وقد كان يحس أن شيئا ما يخفونه عنه . . لقد قرأ هذا المعنى على وجوههم . . لكنه لم يجد صعوبة فى معرفة ما كانوا يخفونه عنه ، فهتف قائلاً : ما لى أراكم واجمين ؟! هل هناك شىء تخفونه عنى ؟! ثم إنى لا أرى بنيامين معكم ، فأين هو ؟؟! هل تأخر عن القافلة لأمر ما ؟! أم حدث له مكروه ؟! أجيبونى بصدق عن هذا السؤال . أجيبونى ، لعلكم أضعتموه كما أضعتم أخاه يوسف من قبل ، لقد كنت أحس وأتوقع هذا من أعماق نفسى . . ثم قال بعد أن هدأ قليلاً : يا بنى ، لقد وطنت نفسى على استقبال المكاره ، وذلك لكى لا يذهب عقلى ، عندما تفاجئنى النكبات .

تعليق : كيف أجال الشيخ نظره فى بنيه يتفقدهم ، وهو كما قيل قد عمى من حزنه على يوسف ، وقوله تعالى : ﴿ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ ؟!

قلت : قال الفخر الرازى فى قوله تعالى : ﴿ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ ﴾ وفيه وجهان :

الوجه الأول : أنه لما قال : ﴿ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ غلبه البكاء ، وعند غلبة البكاء يكثر الماء فى العين فتصير العين كأنها ابيضت ، من بياض ذلك الماء .

وقوله تعالى : ﴿ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ ﴾ كناية عن غلبة البكاء . والدليل على صحة هذا القول : أن تأثير الحزن فى غلبة البكاء ، لا فى حصول العمى ، فلو حملنا الابيضاض على غلبة البكاء ، كان هذا التعليل حسنًا ، ولو حملناه على العمى ، لم يحسن هذا التعليل ، فكان ما ذكرناه أولى .

وهذا التفسير مع الدليل ، رواه الواحدى فى البسيط عن ابن عباس رضي الله عنهما .

الوجه الثانى : أن المراد هو العمى ، قال مقاتل : لم يبصر بهما ست سنين ، حتى كشف الله تعالى عنه بقميص يوسف عليه السلام ، وهو قوله تعالى : ﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا ﴾ .

قيل : إن جبريل عليه السلام ، دخل على يوسف حينما كان فى السجن ، فقال : إن بصر أبيك ذهب من الحزن عليك ، فوضع يده على رأسه وقال : ليت أمى لم تلدنى ولم أك . . حزنًا على أبى،والقائلون بهذا التأويل قالوا :الحزن الدائم يوجب العمى ؛ لأنه يورث كدورة فى سوداء العين . ومنهم من قال : ما عمى لكنه صار بحيث يدرك إدراكًا ضعيفًا .

يقولون لأبيهم : ابنك سرق

.....

قَالُوا لَه : فَاسْمَع مَقَالَتَنَا سَمَاعَ المُوقِنِين ٥٧
تَاللَّه قَدْ سَرَقَ الغُلامُ ، ولَمْ نَكُن مُتَوقِعِين ٥٨
أخَذُوه فِى جُرم جَنَاهُ ، ونَحْن كُنَّا شَاهِدِين ٥٩
لَم نَسْتَطِع أنْ نَفْتَدِيه بِكُلّ غَالٍ أو ثَمِين ٦٠
قُلْنَا لَهُم : فَلْتَأخُذُوا مِنَّا سِواهُ مُبَادِلِين ٦١
قَالُوا : فَلَسْنَا آخِذِين سِوَى الغَرِيمِ المُسْتَهِين ٦٢

لقد انتهى نبىّ الله يعقوب من تساؤله لأبنائه العائدين ، من السفر البعيد ، بعد غيبة طالت . . سألهم عن أخيهم بنيامين ، وذلك بعد أن استقبلهم وصافحهم ، ولما لم ير ولده بنيامين معهم ، سألهم عنه !وطال صمتهم فى الإجابة عن سؤاله . . ثم تشجعوا، فقال قائلهم : يا أبانا . . ! إننا فى أشد الأسف لما حدث . . بيد أننا سنفضى لك بالحقيقة كاملة ، وإن كانت فيها شىء من الغرابة التى لم تخطر على بال . إلا أنه أمر قد وقع ، وقد كان ما كان ، ولا حول ولا قوة إلا بالله . . ! أتدرى يا أبانا ماذا حدث ؟! لقد سرق بنيامين !! وهذا لعمر الله ما كنا لنصدقه ، لو أن أحدًا ذكره لنا . . بنيامين الصغير ، ذو الخلق الحسن ، سلالة يعقوب نبى الله ، ابن إسحاق نبى الله ، ابن إبراهيم خليل الله ، أيكون سارقًا ؟! هذا شىء لم نكن نتوقعه ، ولا حتى فى الخيال ، أو فى أضغاث الأحلام . .!! وقد أُخِذَ بجريمته على رءوس الأشهاد ، أخذوه كما يؤخذ المجرم الآثم ، وكيف لا ؟! فقد استخرجوا صواع الملك من رحله ، ونحن كنا ننظر بأعيننا . والذى آلمنا كثيرًا ، أننا لم نستطع أن نصنع لأجله شيئًا ، لقد رجونا عزيز مصر ، بكل أساليب الرجاء ، فلم يستجب لنا ، عرضنا عليه أن يأخذ واحدًا منا بديلاً عنه ، فأبى وقال : لن تأخذ إلا الذى وجدنا متاعنا عنده . . وكيف نأخذ البرىء ونترك المذنب ؟! وهذا لعمر الله هو العدل بعينه ، فليس من العدل فى شىء أن يؤخذ إنسان بجريمة غيره ولو كان ذلك كذلك لفسد حال الناس .

يؤكدون صدقهم لأبيهم

﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢) ﴾

تَاللّه قَد كَانوا بحَق مُنْصفين وعَادلين ٦٣
إن لَمْ تُصدّقْ مَا نقول وكُنْت فى شَك مُبين ! ٦٤
فَاسأل بِمصْر هُناك كَيْما تَعْرف الخَبَر اليَقين ٦٥
واسْأل رِجَالاً رَافَقُونا ، فِى المسِيرة قَادمين ٦٦

يواصل أبناء يعقوب حديثهم لأبيهم ، جوابًا عن سؤاله لهم ، عن أخيهم بنيامين الذى ظل فى مصر . . لدى عزيز مصر ، مأخوذا بجريمته التى نسبت إليه ، وقصوا على أبيهم ما حدث هنالك لبنيامين تفصيلا . ثم أردفوا قائلين : تالله لقد كان عزيز مصر عادلاً منصفًا ، يقيم الحق ، ويحكم بالعدل ! لقد أبى أن يأخذ أحدنا مكان بنيامين !!

وإن كنت يا أبانا تشك فى قولنا هذا ، ولم تصدقه ، فتستطيع أن ترسل رسولاً إلى مصر ، فيسأل هنالك عن صحة هذا الخبر . وإن لم يتيسر لك التوصل لسؤال أهل مصر ، لبعد المسافة ، ومشقة الرحلة ، فاسأل أهل القافلة التى قدمنا فيها ، والذين رافقونا فى مسيرة العودة من مصر إلى الشام فهم ليسوا غرباء ، بل هم من أهل تلك البلاد . إننا نحكى لك هذا الذى حدث ، وكلنا أسف على عدم استطاعتنا الوفاء بوعدنا لك ، بأن نعيد بنيامين معنا . فالذى حدث كان أبعد من تقديرنا ، وفوق مدار تفكيرنا ، وفى الوقت نفسه ، نؤكد لك ، أننا صادقون فى كل كلمة ذكرناها لك ، فى هذه القصة .

قال ابن كثير فى تفسيره : ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ قيل : المراد مصر ، قال قتادة ، وقيل : غيرها . ﴿ وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾ أى التى رافقناها ، عن صدقنا وحفظنا وحراستنا ﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ فيما أخبرناك به ، من أنه سرق ، وأخذ بسرقته .

قال البيضاوى فى تفسيره : ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا ﴾ يعنون مصر ، أو قرية بقربها ، لحقهم المنادى فيها ، والمعنى أرسل إلى أهلها ، واسألهم عن القصة ﴿ وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾ وأصحاب العير التى توجهنا فيهم ، وكنا معهم ، ﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ تأكيد فى محل القسم » .